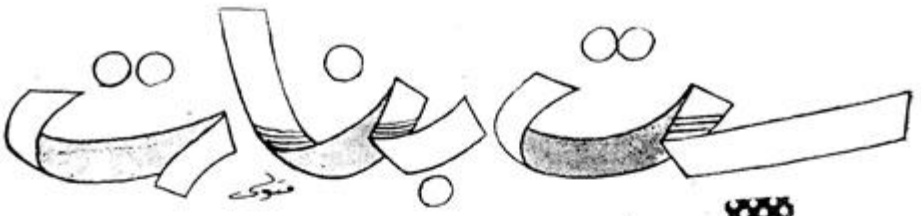

بقلم : د. نجيب الكيلاني

لم يستطع الاستاذ سيد ان يطفىء في جسده وروحه نوازع الجنس والتفكير في الأنثى على الرغم من أنه قد جاوز الرابعة والخمسين من عمره، لقد خيل اليه بعد وفاة زوجته الحبيبة الصابرة والمهذبة أثناء ولادة متعسرة .. خيل اليه أن كل شيء قد انتهى ، وهل يعقل أن يتنكر لذكراها ، في هذا العمر المتقدم أو يفكر في الزواج مرة أخرى ؟ وهل يستطيع أن ينسى أن زوجته تركت له ست بنات .. أجل ست بنات دفعة واحدة ليس بينهن ذكر واحد ، تتراوح أعمارهن بين الثالثة ، والخامسة عشرة ، وتطلع (سيد) على الرغم منه للشرفة المقابلة لشرفته اثناء عودته من العمل .. ان الست (وداد) الأرملة ذات السبعة والثلاثين تتألق كعادتها كل يوم ، وتحاصره بنظراتها كانت صديقة المرحومة ولم يستطع سيد أن ينكر أنها كانت تفوق زوجته جمالا ونضارة ، ان طيف الست وداد لايفارق خياله وهو لم يتقدم به العمر كثيرا حتى الشعرات البيضاء التي تتناثر في رأسه قليلة العدد ، ان مظهره العام يوحي بانه كهل في الثالثة والاربعين .. كل معارفه يؤكدون ذلك كما تؤكد المرآة المثبتة في حجرة النوم واحساسه الذاتي يؤكد له أنه يستطيع أن يستمتع بالحياة ويقضي أوقات حلوة لكن آه من ذكرى المرحومة ، وآه من البنات الستة .. الخادمة هربت منهن، ولم تتحمل شغبهن وتدليلهن ، حتى شقيقته الأرمل هي الاخرى لم تستطع الحياة معهن أكثر من شهرين ، ثم فرت هاربة ، وهكذا بقين وحيدات الا من أبيهن، انه يقوم بعمل الاب والام والاخت الرشيدة والخادمة ، انه كل شيء بالنسبة لهن .

واختطف الاستاذ سيد نظرة الى شرفة الست وداد .. الحرارة تكاد تزهق الأرواح وهي في الشرفة كنسمة حلوة رخية والليل مقلق متعب ، ووجه وداد يبشر بالراحة والنعيم ، والوحدة قاتلة قاتمة ، ونظرات وداد كلها أنس وسمر وسلوى لكن ما أقسى ذكرى المرحومة ، وما أشق المسئولية ، مسئولية تحمل أعباء البنات الستة .

طأطأ سيد رأسه ، وكز على أسنانه ، وحاول أن يتجاهل النداء الصارخ الذي ينبثق من عيني وداد ، وأن يكتم نوازع الاستجابة التي يرتجف لها جسده وقلبه وأسرع الخطى نحو مسكنه وهو يتمتم

ـ والله عال .. يالله حسن الختام ، أناخذ زماننا وزمان غيرنا ؟ نحن في سن لايجوز عليها سوى الوقار واعداد العدة

لسنوات الاحالة على المعاش والتفكير فى الآخرة ، وفى مستقبل البنات طبعا ..

وحاول جاهدا أن يبعد عن ذهنه طيف الست وداد وهو يدس المفتاح فى ثقبه المعهود.. قابله البنات الستة دفعة واحدة ، وملأن أذنيه بالكلام الكثير المختلط والضجيج الذى لم يستطع أن يميز منه شيئا ، واستطاعت هذه المظاهرة والوجوه الصغيرة التى ترتفع اليه والابتسامات التى تشع فى قلبه الأمل والحب ...

استطاعت أن تغرق أفكاره السائفة وأن تطغى على صورة الست وداد ، ثم ربت كتف تلك ، وقبل جبين هذه ، وسوى شعر الثالثة ، ومسح على وجه أختها ، ثم تطلع حواليه ، كانت الصالة مليئة بقصاصات ورق مختلف الألوان ، وببعض الاطباق الفارغة ، وبعدد من الاحذية والقباقيب المختلفة الاحجام .. وقطع الملابس والامشاط ، وبقايا خبز وطعام .

وغمغم فى شىء من الضيق :

ـ ماهذا .. لكأنكن تعشن فى حظيرة بهائم .

وتنهد سيد فى حسرة ثم قصدحجرته وخلع ملابسه وارتدى منامته ، وأحضر المكنسة واخذ يكنس ويمسح ، ويرتب الاشياء والعرق يسيل على جبينه الاسمر الشاحب ، ومن آن لآخر يتذكرالمرحومة وكيف انها كانت تكفيه مؤونة هذه المشقات ، وتستقبله لدى عودته من العمل باشة باسمة وتهيىء له سبل الراحة والاستقرار ، لم يكن يعلم ان عمل البيت ورعاية الاولاد مرهق لهذه الدرجة . رحمها الله ، كانت فدائية من الطراز الاول .. مستحيل أن يجد مثلها مستحيل حتى وداد نفسها ..

آه .. عدنا مرة ثانية للست وداد ، لعنة الله عليها وعلى كل النساء ما عدا المرحومة ..

وأخيرا جفف عرقه ، وغسل وجهه ويديه ، ثم هرول ناحية المطبخ لاعداد الطعام واستولى عليه الغيظ حينما وجد أن الأوانى جميعها لم تغسل بعد ، تنهد مرة ثانية وشمر عن ساعديه .. ولبس (مريلة) الشغل .

وهكذا لم يستطع الجلوس على المائدة الا بعد السادسة والنصف مساء .. كانت كل عضلةفى جسده تصرخ بالتعب والانهاك ، لكنه نظر الى البنات الجالسات حوله وهن يخطفن الطعام فى نهم نظرة كلها حنان واشفاق .. انهن بلا أم وهذا يكفى وحده ليجعلهن فى مأساة لايشعرن بحقيقتها ، وما كدن يشعرن بالشبع والرى حتى أخذن فى سرد مطالبهن واحدة وراء الاخرى .

ـ أريد مسطرة ياابابا .

ـ القلم الحبر فقد منى

ـ أريد ممحاة وكراس

ـ قالت لى الأبله : انت ضعيفة فى اللغة العربية وفى حاجة الى درس خصوصى .

ـ الناظرة طلبت منا عشرة قروش

ـ مريلتى ممزقة من فوق الكتف

وهكذا .. وهكذا عشرات المطالب.. والشكاوى التى لابد من البت فيها فورا وبدون تأجيل أو مناقضة . وسيد فى هذا الجو رأسه يدور.. ومطارق الصداع تدق بلا رحمة ، والرغبة فى النوم والراحة تحاول أن تغلق جفنيه . .

رحمة الله عليها ·· ثم تكن تعرف انها قد تموت بين يوم وليلة وكانت لهـا آمال كثيرة لو كانت تعلم لحاولت على الأقل أن تعطيني فترة تدريب ، وان توجهني ببعض النصائح والارشادات ، لكنها للاسف ماتت·· ماتت ومات الجنين والغريب أنه كان ذكرا ·· لاول مرة كان ذكرا ·· لطالما تشوقت اليه وحلمت بيوم مقدمه ،ووهبت النذور والوعود ولكنه جاء أخيرا وميتا ، وأخذها معه ·· انها ارادة الله ·

توضأ وصلى بعد أن رفع المائدة ، ثم أخذ في ترتيب أثوابهن وجواربهن ·· وتلميع أحذيتهن ·

وكانت صغراهن في حاجة للمزيد من الرعاية ،انها في حاجة دائمة للابس نظيفة ، ولغسل ما يتسخ منها ، وهي دائما تصر على طلب الشيكولاته ، فاذا ما أحضرها لها طلبت الفاكهة ، وقبل ان تنتهي من تناولها تبكي من أجل المشروبات المثلجة وبعد أن تقذف بالزجاجة الفارغة تطلب فنجانا من الشاى الممزوج باللبن ··

أجل · ·لابد·· والا فالبكاء والعويل والانزواء في ركن ·· لاشك أن الست وداد واقفة الآن في شرفتها يفوح من أردافها العطر وتفتح صدرها الناهد لنسيم العليل الرطيب ، ونحلم بالرجل ولا شك انها تعرف ما أنا فيه من عذاب وتعب ، وقطعا هي الآن تضحك ملء شدقيها ، وتسخر مني ومن مأساتي ، وقد تتحامل على وتتهمني بالرزانة السمجة ، بل الغباء الشديد ··

وجاءه صوت احداهن :

ـ بابا ··

ـ نعم ·

الرثة ·· همزه على ألف أم على نبرة؟

وكان هذا بداية لجولة تفتيشية على الكتب والكراسات ، وتأنيب المقصرة منهن ، والثناء على من نالت الدرجات العالية ، وتوضيح ما غمض ، ومساعدة من تحتاج الى المساعدة ، وهكذا حتى قاربت العاشرة مساء ·

وخطا الاستاذ سيد نحو جهاز التلفزيون ، كان يريد أن ينسى تعبه وصداعه ، والصراعات التي ترهق روحه وجسده ·

وصرخ سيد بعد أن فشل في ادارة الجهاز : هل أتلفته واحدة منكن ؟

واختلطت الاصوات ··

ـ والله ما أنا ·· نانى ·· لا والله العظيم ·· فيفى ، وحياتك ·· يابابا نوال ·· كذابة انها ثريا ·

وصرخ سيد في عنف :

ـ كفى ·· كفى ياأولاد المركوب ·

وشهقت نانى وانهمرت دموع نوال على خدها ، وجرت ثريا صوب حجرة النوم لتحتضن الوسادة وتغرقها بالدموع ·· أما صغراهن فقد ضربت الارض بقدمها وهتفت في اصرار :

ـ لازم التلفزيون يشتغل ·

وصاح سيد بأعلى صوته :

ـ هيا جميعا الى النوم ·

استلقى على سريره واستعرت لحظات الهدوء المتاحة في غفلة من الشياطين الصغار ، وعلى الرغم من انهداد قواه الا أنه بقي متيقظا ·

كان يفكر في الغد ، ومطالب البنات ومشاق عمله بالجمرك ، وهو موظف

هنا بالدرجة الثانية، وازدحام المواصلات وتوصيل الصغيرات للمدارس المختلفة ٠

ووقع بصره فجأة على صورة الزفاف كانت ثيابها بيضاء كاللبن الحليب ٠٠ وكانت صغيرة وخجولا ٠٠ عليها مسحة من جمال وادع رقيق ٠٠ رحمها الله ٠ وكان وهو يقف بجوارها يتفجر حيوية وشبابا وأملا ٠٠

وبعد سنوات كان كل شيء قد تغير ، هي قد غيبها التراب دون رحمة ، وهو غارق حتى أذنيه في هموم الدنيا ٠ ٠ ومشاكل الحياة ٠٠ ايهما أسعد هي في قبرها أم هو في مسكنه ٠٠ لا أحد يدري ٠٠

ولكن صورة الست وداد قد عادت الى ذهنه انها تفرض نفسها فرضا ، تدس أنفها على الرغم منه تأتي دون استئذان أو سابق انذار ٠

ـ بابا ٠٠ بابا ٠

ـ مالك يا عنايات ؟

ـ أريد أن أشرب ٠

ـ على عيني ياحبيبتي ٠

وغادر سريره وقطع أحلامه ، ومضى ليحضر لها كوب ماء ثم عاد ٠٠ انه ينوي أن يستغرق في النوم دفعة واحدة ٠٠ هذا أحسن حل ، وهو في نفس الوقت شيء ضروري وطبيعي حتى يستطيع أن يستعد للغد ٠٠

وسمع ضجة منبعثة من الشرفة المقابلة ٠ ٠الشبابيك والابواب تغلق أو تفتح لا يدري ٠٠ وهي تسعل سعلة

منصنعه ·· انها دعوة غير مباشرة لكى يخرج اليها ··

يخرج ؟ ·· كيف ؟ لتذهب وداد الى الجحيم ·· ان ساعة نوم تساوى عنده خمسين امرأة مثل وداد ·

لكن لماذا لايستنشق نسيم الليل فى هذا الجو ويحظى بالفضاء الممتد دون حدود ، ولعله يخلصه من ضيقه وكربه·

ـ بابا ·· بابا ·

ـ ياطول عذاب بابا ·

ـ آه عندى مغص ··

وانتزع نفسه وقصد الى الصيدلية الصغيرة ووضع فى نصف كوب ماء قطرات من زجاجة صغيرة ، ثم سقاها وعاد بعد أن أطفأ النور ·· المأساة تتكرر·· كل ليلة ·· هذه تريدالذهاب الى دورة المياه وتخاف العفاريت، واخرى خائفة من الظلام ، وثالثة تشكو من البراغيث أو الباعوض ، والرابعة رأت حلما مفزعا ، فهبت من نومها مذعورة وأخذت تبكى والخامسة تشكو من أختها التى سحبت من فوقها الغطاء ، وتركتها للبرد ·· وهكذا ينتهى الليل دائما دون أن تغفو عيناه ساعتين أو ثلاثة ·

ـ يا أستاذ سيد ·· يا أستاذ سيد·

ووثب من سريره قاصدا الشرفة ·· لكأنه يهرب الى الصوت الحنون الدافىء الذى ناداه ·· انه يعيش يبذل الجهد والحنان دون أن تهطل على قلبه قطرات منه ·· انه وحده يذوى ويحترق ·· يذوب رويدا رويدا ·

ـ من ينادى ؟

كان يعرف لكنه يتجاهل ·

وغمغمت وداد بينها وبين نفسها : ـ

ـ ياابن اللئيمة ·· ثم قالت بصوت خفيض لكنه مسموع لديه :

ـ كم الساعة ؟

ـ مساء الخير ياست وداد ·

ـ مساء النور ·· ساعتى توقفت ·

ـ الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ·

ـ آه ·· السهرة طالت ·· تصبح على خير ··

ثم قال بدون مناسبة ظاهرة :

ـ الاولاد عذبونى ·· لم أنم حتى الآن ··

قالت فى اشفاق مصطنع :

ـ مسكين مالك وما للعذاب دا

ـ وماذا أعمل ·· لافائدة

ـ ابحث لك عن ست طيبة ترعاهن

ـ أتظنين أن هناك من تحتمل هذا الشقاء ·· مستحيل

قالت فى نغمة ممطوطة :

ـ أولاد الحلال كثير

·· ثم استطردت وهى تنسحب عازمة على اغلاق باب الشرفة

ـ تصبح على خير ··

وعلى الرغم من الجهد الذى يبذله فى الصباح والمساء فقد استيقظ مبكرا فى اليوم التالى كانت ملامحه تشرق بغير قليل من البهجة والاستبشار وأسرع الى المطبخ وأعد طعام الفطور عندما تحلقت حوله الفتيات أخذ يصب الشاى ويقول:

ـ مارأيكن يابنات ؟؟ لقد قررت أن أحضر لكن « أبله وداد » انها مثل ماما تمام أهناك اعتراض ؟

وساد الهرج والمرج واختلطت الأصوات وهمست الكبرى يابابا ؟؟

ـ صحيح يا حبيبتى ·· انها ستريحكن تماما ·· أنتن فى حاجة الى قلب طيب مثل قلبها ··

تطلعت اليه فى مكر ·· كانت الابتسامة على شفتيها وفى عينيها أيضا وغمغمت فى خبث :

ـ الف مبروك يابابا